فصل من المرهق

- دستويفسكي -

... وجاء لزيارتي غداة اليوم الذي تلا حادث قطيعتنا. و كنت خارج البيت فجلس ينتظرني. وقد كنت أتوقع مجيئه بين ساعة وأخرى طوال هذه الأيام الثلاثة، فلما رأيته وأنا أهم بدخول غرفتي الصغيرة غشيت عيني سحابة وخفق قلبي بشدة فتسمرت على العتبة. ولكنه لم يكن وحده لحسن الحظ، فقد رأى صاحب البيت أن يتعرف إلى الزائر ليبدد عنه سأم الانتظار، واخذ يقص عليه حكاية ممتعة.

كان مؤجري مستشارا شرعيا في الأربعين من عمره، يعيل زوجة مصدرة وولدا عليلا، و كان دمث الأخلاق، هادئ الطبع، شديد الميل إلى الانكشاف والتبسط. وقد سرني وجوده. بل أنقذني من هذا الموقف. وألا، ماذا أحدث فيرسيلوف.

كنت واثقا من إن فيرسيلوف هو الذي سيأتي لزيارتي أولا، كنت أتمنى. إذ لم يكن بوسنى أن أبادره بالزيارة مهما كلف. تماما كما كنت أتمني إذ ومم يكن بوسعي إن أبادره بالزيارة مهما كلف ولم يكن هذا عنادا مني. بل على التأكيد محبة له واستجابة لنوع من غيرة الحب، إني لا استطيع التعبير عن هذا ولن يجد القارئ عندي على أي حال، شيئا من البلاغة.

ورغم إني كنت أتوقع مجيئه خلال هذه الأيام، لم استطع أن أتصور مقدما ما الذي سنتحدث به بادئ الأمر، بعد كل ما حدث.

– آه، هاك إذن ؟ ومد لي يده بولاء دون أن ينهض: اجلس هنا إلى قربنا. أن بيير ليتوفتش يقص علينا شيئا لذيذا عن الصخرة التي تقع إلى جانب ثكنات بولس... أر في تلك الأنحاء.

وأجبته مسرعا وأنا اجلس على كرسي إلى جوارهما: اجل، اعرف هذه الصخرة.

وكانت غرفتي تشكل مربعا ضلعه أربعة أمتار فقط فكنت أتنفس بمشقة. وارتسمت على ثغر فيرسيلوف اشراقة من شعور الارتياح. بلا شك لم يكن مطمئنا. كان يتوقع مني بعض الحركات فلما مرت هذه الفترة الأولى شعر بارتياح.

– بيير ليتوفتش. اعد قصتك من بدايتها.

كانا قد توصلا إذن إلى المناداة بأسمائهما مجردة من الألقاب.

– جرى هذا في عهد القيصر المرحوم.. قالها بيير وهو يلتفت إلي. وكان يتكلم بعصبية وشيء من الحرج كأنه يجهد سلفا لمعرفة الأثر الذي يتر كه حديثه: تعرفون إذن هذه الصخرة. صخرة صماء تتوسط الطريق لا شأن لها غير الإزعاج والمضايقة، وكان القيصر قد مر بها كثيرا، فأزعجته في النهاية. كانت و أيم الحق جبلا يشوه منظر الطريق فقال: (يجب إن تزول هذه الصخرة تفهمون ما تعني هذه الكلمة: يجب إن تزول. وتذكرون

القيصر الراحل. ما الحيلة مع هذه الصخرة! لقد دوخت رجال الدولة. كان هناك المجلس البلدي و كبير لا أدري على الضبط من يكون، ولكنه من ارفع الناس مقاما في ذلك الحين، أوكل إليه أمر الصخرة. وعرف إن تكاليف رفعها تبلغ خمسة عشر ألف روبل من الفضة لا تنقص روبلا واحدا. (كانت أوراق النقد قد بدلت في عهد القيصر الراحل).

أراد الانكليز في البدء أن يقيموا سكة حديدية توضع عليها الصخرة ثم تجر بقوة البخار. ولكن كم يكلف هذا؟ لم تكن الخطوط الحديدية موفورة في ذلك العهد. لم يكن يعمل غير خط تسارسكو باسياو.

– الم يكن بوسعهم نشرها؟ وبدأت أقطب حاجبي. واستبد بي شعور من الغيظ والمهانة أمام فيرسلوف. ولكنه كان يستمع بلذة ظاهرة. وأدركت انه مسرور لوجود صاحب البيت، لأنه مستح أمامي هو أيضا. كان هذا واضحا ومؤثرا من قبله.

– نشرها؟ بالفعل خطرت هذه الفكرة لونتفران في ذلك الحين. تعرفون بالطبع الرجل الذي بني كنيسة القديس اسحق. كإن يقول بإمكان نشرها ثم نقلها. نعم ولكن بأي ثمن!.

– لم يكن هذا مكلفا جدا. مجرد نشرها ثم نقلها.

– لا. اسمع. كان يجب وضع آلة بخارية، ولكن أين تنقل الصخرة؟ جبل بهذا الحجم! كانوا يقدرون تكاليفها بما لا يقل عن عشرة آلاف أو اثني عشر ألف روبل.

– اسمع، بيير لينوفتش، هذه سخافات. ولم يقع شيء منها على هذا الشكل.

ورماني فيرسيلوف في تلك البرهة، بنظرة لا تكاد تلحظ تينت فيها عطفا رقيقا نحو صاحب البيت، بعض التأسي له والرثاء لحاله.

– هاك. هاك إذن. قالها بيير فرحا. ولم يكن قد لحظ شيئا. وكان ككل القصاصين يخشى أن يثير الشكوك ويقاطع بالأسئلة: عندها، جاءهم في روسي، روسي حقيقي من أبناء الشعب، بذقن صغيرة وسترة تنزل حتى القدمين. وكانت الخمرة قد لعبت برأسه، لا لم يكن سكرانا. جاء ساعة الاجتماع بين الانكليز و مونتفر إن. ووصل ذلك الكبير في عربته فأصغي إليهم برهة، ثم انفجر ثائرا: "كيف تتناقشون كل هذا الوقت ولا تتوصلون إلى شيء".

ولحظ الفتى الروسي واقفا عن بعد يتطلع ويبتسم بتكلف. لا، لم يكن تكلفا..

واقترح فيرسيلوف هذا التعبير: (بتهكم).

– بتهكم خفيف، يعني بشيء من التهكم ،هذه الابتسامة الروسية الطيبة

وينتهره الكبير في ثورته: ايه، أنت هناك صاحب اللحية. ماذا تنتظر؟ من أنت ؟

– أتطلع إلى الصخرة يا صاحب الجلالة.

هكذا على الضبط، صاحب الجلالة. قد يكون الأمير سوفوروف

الايطالي، سليل الجنرال... ولكن لا لم يكن سوفوروف. وعبثا لقبه بصاحب الجلالة، لم يكن غير مواطن روسي ذي قلب كبير، نموذج للروسي الحقيقي. وحزر إذن كل شي..

– هيا. إذن هو أنت الذي يزيل الصخرة. لماذا تضحك ؟

– من اجل الانكليز يا صاحب الجلالة. أنهم يطلبون غالبا على التأكيد، لان الحزينة الروسية عامرة... وليس لديهم ما يأكلون.. أعطوني مئة روبل يا صاحب الجلالة وتزول الصخرة، مساء الغد.

بوسعكم أن تتصوروا هذا المشهد: الانكليز، وهم بالطبع يريدون التهامه على البارد، ومونتفران غارقا في الضحك. ولكن الأمير وحده، هذا القلب الروسي الطيب قال: أعطوه مئة روبل ؟

– إذن. ستنقل الصخرة ؟

– مساء الغد يا صاحب الجلالة.

– و كيف تفعل ذلك ؟

– هذا – وليكن دون إزعاج صاحب الجلالة هذا سرنا، قال هذا، كما تعرفون، بلغة روسية طيبة، وقد سر الأمير وقال: أعطوه كل ما يطلب.

– وماذا تظنون؟ فعل ذلك ما قال؟ وقال فيرسيلوف مبتسما: "لا أدري"، و كنت أنا متجها...

– نعم، فعله.

وصرخ فيرسيلوف بشعور الظافر: كيف؟ و كأنه هو الذي رفع الصخرة.

– استأجر بعض العمالة الموجيك، بفئوسهم، بعض الرجال الروس.. فحفروا هوة حول الصخرة. ظلوا يحفرون طوال الليل وكانت حفرة هائلة، تماما بحجم الصخرة، أو تزيدها مقدار أصبع. وعندما انتهى كل شيء، أمر أن يلغم تحت الصخرة. لم يبق لها بالطبع أرض ترتكز عليها. وعندما بدأت تهتز دفعوها بقوة السواعد، على طريقة الموجيك.. وبوف! هاك الصخرة في الحفرة. ثم هالوا فوقها التراب وساووه بالمدحلة. وزالت الصخرة. كان هذا واضحا. قال غيرسيالوف: أترون هذا؟

وتجمع رهط من أبناء الشعب جاءوا من كل صوب. أما الانكليز، وكانوا قد توقعوا كل هذا، فقد سعروا كمدا وغضبا. وجاء مونتفران: هذا عمل على طريقة الموجيك، انه بسيط جدا، ولكن كل شيء هنا، انه بسيط كصباح الخير، ولم تفكروا به أيها المجاذيب! و أزيدكم أن الرئيس، الشخصية الكبيرة، أمسك به وعانقه: ولكن من أي بلد أنت؟

من مقاطعة لاروسلاف، يا صاحب الجلالة. ومهنتنا الخياطة. وفي الصيف نؤم العاصمة لبيع الفواكه.

ووصل النبأ إلى السلطات فأمرت أن يعلق وسام في عنقه. وكان يتنزه و الوسام في عنقه، ثم يذهب ليشرب خمرا، تعرفون هذا فنحن الروس لا نستطيع أن نمسك عن الخمر، ولذلك يأكلنا الأجانب حتى يومنا هذا. أليس كذلك؟

وقال فيرسيوف: أكيد، هي العقلية الروسية.. وهنا نودي القصاص،

لحسن حظه، من قبل امرأته المريضة فذهب مسرعا. وإلا لم يكن باستطاعتي أن اضبط نفسي. وكان فيرسيلوف يضحك.

– ولكن، يا عزيزي، لقد روح عني مدة طويلة قبل حضورك. هذه الصخرة!.. إنها بين هذا النوع من القصص أحط ما لدينا من قصص وطنية. ولكن كيف السبيل إلى مقاطعته ؟ لقد رأيت هذا جيدا، كاد يغمى عليه من الفرح. والحقيقة، ما تزال الصخرة مكانها كما اعتقد، لا في الحفرة.

وصرخت: يا الهي، صحيح ؟ و كيف تجاسر؟.

ماذا تقول ؟ ولكني أراك مستاء حقا. لقد سمعت في طفولتي قصة صخرة من هذا النوع. ولكنها غير هذه على التأكيد. "ووصل الخبر إلى السلطات، أن روحه لتبتهج فرحا عندما يذكر هذا: "وصل الخبر إلى السلطات". إن هذه القصص لضرورية في مثل هذه البيئات التي تستحق الإشفاق و الرثاء. ولهم منها كميات لا تحصي. وهذا على التحقيق لعدم الاعتدال في أمزجتهم، إنهم لم يتعلموا شيئا ولا يعرفون شيئا على الضبط. ففيما عدا لعب الورق و عملهم اليومي يهفو بهم الشوق إن يتحدثوا عن شيء، شيء إنساني، شعري.. بالمناسبة من يكون بيير ليتوفتش ؟

– رجل تعس من أفقر الناس.

– أترى إذن. انه قد لا يلعب الورق. وأعيد القول فهو حكاية هذه السخافات، يرضي في نفسه نزعة حب القريب، وقد أرضي شعوره الوطني أيضا.

عندهم مثلا هذه القصة عن زافيالوف الذي عرض عليه الانكليز مليون روبل، شريطة ألا يضع على بضائعه ماركة مسجلة.

– آه يا إلهي أعرف هذه القصة.

– ومن لا يعرفها. وهو عندما يقصها يعرف انك سمعتها حتما ولكنه يقصها مع ذلك وهو يتصور بمحض إرادته انك لا تعرفها. ويبدو إن قصة رؤيا ملك السويد قد ذهبت جدتها، ولكنهم كانوا يرددونها في عهد فتوتي بشغف وهمسات غامضة، ومثلها قصة الرجل الذي جثا أمام الشيوخ في مجلس السينا، وهم يعبدون القصص التي تدور حوادثها في البلاط، كقصص الوزير تشرنشيف الذي كان في السبعين واستطاع أن يغير هيئته تماما، حتى لم يكن يعطيه احد أكثر من ثلاثين، وكان القيصر المرحوم لا يصدق عينيه وهو يتطلع إلى صورته في المجلات..

– وهذه أعرفها أيضا. ا

– إن كل هذه القصص غاية في سوء الذوق. وهي منتشرة أكثر مما نظن. إن الرغبة في الكذب لجلب المسيرة إلى الناس نجدها في أرقى المجتمعات. فنحن نشكو جميعا عدم الاعتدال في قلوبنا، ولكن قصصنا نحن تنتمي إلى فئة ثانية، يتحدثون عندنا عن أميركا مثلا. هذا مخيف.

ويتحدثون عن رجال الدولة، وأنا اعترف بانتمائي إلى هذه الفئة. وقد شقيت بذلك طوال عمري.

– لقد قصصت حكاية تشرنشيف مرات، أنا أيضا.

– أنت أيضا ؟

– يوجد معنا هنا مستأجر آخر. موظف مجدور الوجه متقدم في السن. ولكنه واقعي بشكل غريب، فلا يكاد بيير لييوفتش يفتح فاه، حتى يأخذ مقاطعته ومعارضته، مما اضطر المسكين أن يتزلفه ويطري خصاله، ويجهد إلى مرضاته دائما، لغاية واحدة هي إن يتكرم بالإصغاء إليه.

– هذا نوع آخر من سوء الذوق. وهو أشد من ذاك بشاعة. في الأول شيء من الحماس والشعر: "دعني أثرثر، وسترى كم هو لذيذ" أما الثاني فسويداء و نثر: "دعني من ترهاتك. أين جرى هذا ؟ متى؟ في أي سنة؟، ولكن هؤلاء بلا قلب يا عزيزي. اسمح للناس إن يكذبوا قليلا، فهذا بريء. بل دعهم يكذبون كثيرا عند الحاجة، فانك تقيم بذلك الدليل على رقتك وسماحة خلفك. و من ثم هم يسمحون – لك بان تكذب أيضا.

آه. ولكني مستعجل.. وأضاف فيرسيلوف وهو ينهض عن. كرسيه: "أن مكان سكناك حسن. وسأعلم صوفيا اندريفنا و أختك بخبر زيارتي، وان صحتك جيدة. إلى الملتقى يا عزيزي.

كيف؟ هذا كل شيء ؟ لم يكن بي إلى هذا ثمة حاجة. كنت انتظر شيئا آخر (المهم)، رغم عالمي أن الحوادث لا يمكن إن تجري على غير هذا المنوال.

وسرت معه حتى السلم وبيدي شمعة. وتهيأ صاحب البيت للخروج معنا، ولكني أمسكت به من ذراعه ودفعته بشدة دون إن يلحظ فيرسياوف، فتطلع إلي بدهشة وتوارى لتوه.

– هذا السلم اللعين..

قالها فير سيلوف وهو يجر كلماته جرا، خشية أن أقول شيئا أنا أيضا.

– لم أعد آلف هذه السلالم. وأنت في الطابق الثاني. هيا، إني أتبين طريقي.. لا تقلق يا عزيزي. قد يصيبك برد..

ولكني لم اتركه. ونزلنا معا حتى الطابق الأول.

– كنت انتظرك طوال هذه الأيام الثلاثة. وخرجت مني هذه الكلمات بالرغم عني. وكنت أتنفس بصعوبة.

– أشكرك يا عزيزي

– كنت أعلم أنك ستجيء..

– وأنا كنت أعلم أنك تعرف ذلك. شكرا يا عزيزي ثم لاذ بالصمت. و كنا أمام الباب وأنا أسير وراءه. وفتح الباب، وكان الظلام دامسا. واندفع الهواء فجأة فأطفأ الشمعة. وأمسكت به من ذراعه فارتعش ولكنه لم ينبس بكلمة. وارتمت على يده أقبلها بشوق ونهم مرات لا تحصى.

– يا ولدي العزيز. ولكن لم تحبني كل هذا الحب ؟

وكان صوته يختلج بنبرات جديدة حتى ليخال صوت رجل آخر.

وأردت الكلام إلا إني لم استطع وصعدت السلم راكضا. وظل هو ينتظر مكانه. ولم أسمع صوت الباب الخارجي حين فتح، ثم أغلق بشدة، إلا بعد أن وصلت إلى الطابق الثاني، وتجنبت صاحب البيت الذي وقف يعترض سبيلي، و دلفت إلى غرفتي فوضعت المزلاج وارتميت على سريري، و واريت وجهي في الوسادة، دون أن أشعل الشمعة. ثم بكيت بكيت، وكانت أول مرة ابكي فيها بعد حادث توشار! كانت عبراتي تنهمر بدرجة من الشدة. وكنت سعيدا! كيف أصف هذا؟

* * *

ولم نشر بعدها إلى هذا المشهد أبدا. والتقينا بعد يومين و كأن شيئا لم يقع. بل كنت خشنا معهر وبدا لي هو على شيء من النشاف، ولم نتحدث خلال شهرين في غير المواضيع المجردة، أكثرها إنسانية وأهمها بلا شك، ولكن أبعدها عن (المهم).

قال لي بحزن مرة: كثيرا ما قلت لصوفيا اندريفنا في أوائل عهد صلتنا: إني أشقيك يا حبيبتي. وسأشقيك دائما. ولست آسف على هذا طالما أنت ماثلة أمام عيني. أما إذا فارقت الحياة فسأقتل نفسي تكفيرا عن جريمتي. واذكر انه كان معي على غاية من الصراحة ذلك المساء.

وكنت أرهقه بأسئلتي. اندفع إليه بنهم الجائع على قطعة من الخبز، وكان يجنبني دائما بطيبة نفس. وكانت هذه الأسئلة قد شغلتني طوال

عمري، حتى في موسكو وانأ فتي. وكنت أرجى، الجواب علها إلى اجتماعنا في بطرسبورج. وقد صارحته بذلك فلم يسخر بي بل صافح يد بحرارة.

لم استطع أن أظفر منه شيء في السياسة العامة والمشاكل الاجتماعية. وكانت مع ذلك أكثر القضايا التي ترهقني وتشغل ذهني. كيف تنتهي الدول الحديثة والعالم ؟ كيف يستتب السلم الاجتماعي؟

وأعار كل هذا أذنا صماء مدة طويلة، ولكني حظيت منه أخيرا بهذه الكلمات.

– أعتقد أن كل هذا سيتم بشكل عادي تماما. فان الدول كلما (رغم انتظام ميزانياتها) ستجد نفسها بوما مطعونة بحرابها فتمتنع عن الدفع حتى تتجدد، بعد انهيار عالمي، وستجد العناصر المحافظة في العالم لتحول دون ذلك، إنها صاحبة الدين والأسهم ولا تود الاعتراف الهزيمة. سيحصل بطبيعة الحال نوع من التصفية. ثم أن كل الذين لم تكن لديهم أسهم ولا يملكون شيئا، أعني كل الشحاذين سيرفضون بالطبع قبول هذه التصفية فتكون الحرب. وبعد سبع وسبعين معركة وهزيمة، يفنى الشحاذون أصحاب الأسهم فيستولون على أسهمهم ويحتلون مكانهم، كأصحاب أسهم أيضا، مفهوم. قد يقولون شيئا جديدا وقد لا يقولون. ويغلب على الظن أن يفلسوا هم أيضا. و من ثم لا أستطيع يا صديقي أن أقرأ أبعد من هذا في سجل الأقدار التي سوف تبدل وجه العالم. ولكن اقرأ رؤيا القديس يوحنا..

– أتكون الأشياء مادية إلى هذا الحد؟ وهل ينتهي العالم بالمال وحده؟

– آه. إني لم أتناول على التأكيد سوى زاوية واحدة من اللوحة ولكنها تتصل بالمجموع بعرى وثيقة.

– إذن ما العمل ؟

– آه، يا إلهي! لا تستعجل الأمور كثيرا. ليس هذا بقريب الوقوع. والأفضل بصورة عامة أن لا تفعل شيئا، فتكون مرتاح الضمير على الأقل.

– دعك من هذا إذن، ولنتحدث بجد. أريد أن أعرف ماذا يترتب على عمله. وكيف يجب إن أعيش.

– ما يجب عليك عمله يا عزيزي، كن شريفا. لا تكذب أبدا. ولا تشته بيت قريبك. وباختصار اقرأ الوصايا العشر. فكل هذا مسطور فيها إلى الأزل.

– كفى كفى. كل هذا قديم. و هي مجرد كلمات بينا يجب أن يكون هنالك عمل.

– إن كنت نهبه لمثل هذا المال العظيم فاسمع إذن إن تحب أحدا أو تكلف بشي.

– انك تضحك دائما. ثم ماذا أفعل وحدي بوصايا العشر ؟ تضعها موضع التنفيذ رغم أسئلتك وشكوكك و تصبح رجلا عظيما

– يجهله الجميع.

– ليس من خبئ لا ينكشف.

– انك تهزل دائما.

– ولكن إن كنت تهتم بكل شيء إلى هذا الحد فالأفضل أن تتخصص عاجلا. كن محاما أو مهندسا بناء تجد لنفسك شاغلا جديا فتهدأ وتنسي هذه الصبيانيات. و لذت بالصمت. وهل كان بوسعي أن أظفر منه بأكثر من هذا؟ ومع ذلك فقد كانت أجدني بعد كل من هذه الأحاديث اشد اضطرابا مني قبله. و كنت أرى بوضوح أنه يحتفظ بنوع من السر. وكان هذا ما يزيدني تعلقا به.

وقاطعته مرة: اسمع، كثيرا ما اشتبهت بأنك تقول هذا بدافع من الحقد والألم الدفين بينما أنت متعصب في أعماق نفسك لفكرة سامية يخجلك التصريح بها.

– أشكرك يا عزيزي.

– اسمع. اعرف انه ليس أنبل ولا أروع من أن نكون أداة نافعة في هذا العالم. قل لي كيف أ كون عضوا نافعا في الوقت المناسب. اعرف انك لن تقطع بحل. ولكني بحاجة إلى رأيك.قل لي، وأنا أعاهدك بان افعل ما تقول، بماذا تتجلى هذه الحقيقة الكبرى؟

– إن تحول الحجارة إلى أرغفة. هذه هي الحقيقة الكبرى.

– أهي الحقيقة الكبرى؟ كلا. انك لتعين في وايم الحق، طريقا كاملا أتبعه. ولكن قل لي أهي الحقيقة الكبرى ؟

– إنها كبيرة يا صديقي. ولكنها ليست بالحقيقة الكبرى... هي كبيرة فقط في اللحظة الحاضرة والإنسان ينسى سريعا إذا شبع. وهو على العكس يقول لتوه: " حسن. ها قد شبعت. والآن ماذا أعمل ؟" أن القضية على هذا تبقى مفتوحة أبديا.

– لقد تحدثت عن الآراء الجنفوازية، لم أفهم ما تكون هذه الآراء.

– الآراء. الجنفوازية هي الفضيلة بدون المسيح. أنها آراء يومنا الحاضر، وعلى الأصح، آراء المدنية الحديثة بأسرها. وبكلمة هي إحدى هذه القصص المملة بدايتها. وبجدر بنا أن نمر دونها.

وقال لي فجأة بشيء من العاطفة والإصرار الخاص وقد تغيرت نبرات صوته: لست أريد يا عزيزي أن أغريك ببعض الفضائل البورجوازية مقابل مثلك العليا. لا أقول لك أن السعادة أفضل من البطولة، فالبطولة أسمي من أي سعادة. ومجرد الاستعداد للبطولة يشكل السعادة. هذا شيء مقرر بيننا إذن. وإذا كان لي ثمة احترام لشخصك فلأنك استطعت في عهدنا المهترئ. هذا، أن تخلق لذاتك فكرة. ولكن يستحيل عليك ألا تتوخى الاعتدال طالما أنت تصبو إلى إن تعيش حياة مجيدة صاخبة، وتود أن تضرم النار في ما لا أدري ماذا، وتقطع اربا لا أدري أي شيء آخر. وأن ترتفع فوق روسيا كلها كالشهاب المنير، وتترك العالم كله في غمرة من الذعر والإعجاب والذهول، ثم تتوارى بعد ذاك. يوجد على التأكيد شيء من هذا في قلبك. ولذا أرى أن أحذرك، لأني أحس نحوك بشعور من العطف والمحبة الخالصة.

من هذا أيضا ماذا استطيع أن استخلص؟ لم يكن هذا غير اهتمام بي وقلق على مصيري، انه الوالد بعواطفه التقليدية.

كنت كثيرا ما أسأله عن الدين. ولكن الضباب هنا كان أكثر ما يكون كثافة. فإذا سألته ماذا أفعل في هذه الحالة. أجابني على أسخف شكل، كما يجيبون صبيا صغيرا:" يجب أن تؤمن بالله يا عزيزي".

وصحت مرة في حدة ثورتي: "ولكن إذا لم أؤمن بكل هذا؟

– في هذه الحالة تفعل حسنا ألا نؤمن..

– كيف ؟ افعل حسنا ؟

– إنها علامة ممتازة. بل هي أكثر العلامات دلالة على الأمن والطمأنينة. فان ملحدينا الروس، عندما يكونون ملحدين حقا لأفضل الناس جميعا، مهما ضؤلت عندهم مواهب الفكر. إنهم مستعدون دائما أن يداعبوا الخالق لأنهم طيبو القلب وهم طيبو القلب لأنهم آمنون. مطمأنون لإلحادهم. فملحدونا رجال محترمون واثقون من أنفسهم. إنهم، كما يجوز لنا أن نقول، عماد الوطن.

بالطبع كان هذا شيئا. ولكنه لم يكن كل ما أريد. مرة. واحدة، أبدى رأيه بشكل غريب، خرجت منه على أكثر من الاضطراب و العجب، على التخصيص بسبب هذه الكتلكات و السلاسل التي سمعت بها.

قال لي يوما، بعد حديث طويل: و يستحيل علينا أن نحب الناس

كما هم يا صديقي. ومع ذلك فهذا واجب. ولذا يجب إن تكبت عواطفك و تفعل معهم الخير وأنت تسد انفك وتغمض عينيك (والشرط الثاني ضرورة لا محمص عنها).

تحمل ما يلقونك به من شر دون ما حقد إن استطعت، واذكر.انك إنسان مثلهم. يحق لك بالطبع أن تكون قاسيا معهم إن كان حظك من الذكاء يتجاوز، ولو قليلا، حد المتوسط. فالناس لئام بطبعهم، و اغلب ما يكون حبهم بدافع الخوف، فلا تستسلم لهذا الحب ولا تنفك عن احتقارهم، تعلم أن تحتقرهم، حتى عندما يكونون طيبين. فهم حينذاك، أكثر ما يكونون نتنا وفسادا. آه يا عزيزي إني أتكلم هكذا لأني أعرف نفسي حق المعرفة، احتقر. احتقر السافل و النبيل معا فيهما سواء إن تحب قريبك ولا تحتقره! هذا مستحيل. و عندي أن الإنسان خلق، جسميا، غير قادر على حب قريبه. يوجد هنا خطأ في اللغة منذ البدء، فحب الإنسانية يجب أن تفهم منه الإنسانية التي تخلقها أنت في ذاتك، إذ هي غير موجودة في ذاتها.

اعترف يا صاحبي إن هذا سخيف بعض الشيء. ولكنها ليست خطيئتي فهم لم يستشير و في يوم بدء الخليقة.

– كيف يمكنهم بعد هذا أن يسموك مسيحيا راهبا يحمل سلاسله، وواعظا مبشرا. أني لا أفهم !

– ومن يدعونني هكذا؟

وحكيت له ما سمعت فأصغى إلى بانتباه شديد ولكنه أهل الحديث.